الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الثالث

سورة هود

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

الجُزْءُ الثَّالِثُ

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ٤١١
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

ٱلطَّبۡعَةُ ٱلأُولَىٰ

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6



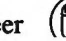
• الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com


 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

عَلَىٰ طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السّامرائي

الجُزْءُ الثَّالِثُ

سُورَةُ هُودٍ

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم





سُورَةُ هُودٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]

١ ـ تبدأ السورة التي قبلها، أعني سورة يونس بقوله: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ فقد وصفت الآية الكتاب بأنه ﴿ حَكِيمٍ ﴾، وذكر في هذه السورة، أي سورة هود، من أحكمه فقال: إن آياته أحكمت ﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

فالذي أحكمها هو الحكيم.

وقال في بداية السورة التي بعدها وهي سورة يوسف: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.

فإنه لما ذكر في سورة هود أن آياته أُحكمت وفصلت دلّ ذلك على أنه مبين. فإنه لا يكون بعد الإحكام والتفصيل إلا مبيناً. فأي كتاب أُحكم وفصّل كان مبيناً.

فتناسبت بدايات السور المتتابعة تناسبًا بديعًا.

٢ ـ قال في خاتمة السورة التي قبلها وهي سورة يونس: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾. وما يوحى إليه هو الكتاب الذي أحكمت آياته، فناسب قوله: ﴿ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ وصف

الكتاب بأنه أحكمت آياته. فخير الحاكمين هو الذي أحكم آياته.

وناسب قوله: ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ في آية يونس قوله في آية هود: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. فالحكيم قد يكون من معنى القضاء فيكون بمعنى الحاكم.

وقد يكون من الحكمة، فالحكيم على هذا هو خير الحاكمين لأنه حكيم وحاكم. ولا شك أن الحاكم إذا كان ذا حكمة كان خير الحاكمين.

فناسب مفتتح السورة خاتمة السورة التي قبلها.

٣ ـ وناسب قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قوله في خاتمة السورة: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فإنه ناسب تبليغه لعباد الله في أول السورة بألاّ يعبدوا إلا الله أن يؤمر هو أيضًا بعبادة ربه بقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ فكلاهما مأمور بالعبادة، المبلِّغ والمبلَّغ.

٤ ـ وناسبت الآية الأولى من السورة، أي قوله: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ قوله في خواتيم السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنه قَصَّ عليه ذلك في الكتاب الذي أحكمت آياته.

ثم إنه فَصَّل ما جاء فيه، وما جاء فيه هو الحق والموعظة والذكرى. فهذا تفصيل لما جاء فيه.

ثم إن الذي يختار من القصص ما يثبت به الفؤاد إنما هو حكيم خبير.

والذي يأتي بالحق والموعظة والذكرى إنما هو حكيم خبير.

فناسب مفتتح السورة خاتمتها أبدع مناسبة.

ثم ننظر في تأليف التعبير:

فقد ذكر أنه كتاب أحكمت آياته ثم فُصلت، وذكر الذي أحكمه وفصله. فالذي أحكمه هو الحكيم الخبير، والذي فصله هو الحكيم الخبير. وهل هناك من يُحكم أفضل من الحكيم الخبير، وهل هناك من يفصّل أفضل منه؟

ولم تجتمع هاتان الصفتان في الكتاب، أي الإحكام والتفصيل، في غير هذا الموضع، وإنما قد يوصف الكتاب بأنه حكيم كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] أو أنه مفصل كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

ثم ذكر أن هذا الإحكام والتفصيل إنما هما من لدن حكيم خبير. فجمع الله لنفسه وصفي الحكمة والخبرة، وكل من الوصفين من أوصاف الكمال.

ثم ما أجلّ هذين الوصفين ههنا! فالحكيم هو ذو الحكمة البالغة وهي إحسان القول والعمل ووضعهما موضعهما الذي ينبغي أن يكونا فيه.

والخبير هو الذي يعلم بواطن الأمور وخبرها. فما أجلّ هذا الكتاب الذي أحكمه وفصله الحكيم الخبير!

وقد يكون لفظ الحكيم من معنى الحكم وهو القضاء، فيكون المعنى أنه أحكم آياته الحاكم الذي بيده الأمر فدل ذلك على علو مكانته. لأن أهمية الكتاب إنما تكون في أمرين:

في الجهة التي أصدرته، فكتاب الموظف الصغير غير كتاب المدير، وهذا الأخير غير كتاب الوالي، وهذا غير كتاب السلطان أو الخليفة. فكلما علت جهة من أصدره علا هو أيضًا على حسب تلك الجهة.

والأمر الآخر الذي يدل على أهمية الكتاب هو محتواه، فإذا كان من

أصدره حكيمًا والحكمة محتواه علت جهته أيضًا.

وهذا الكتاب إنما دل على علوه ورفعته كل مقتضيات العلو والرفعة.

فإنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، وهو من لدن حاكم وحكيم وخبير. ومحتواه طلب توحيد العبادة لخالق الكون. وقد أرسله هذا الخالق منه إلى من يبلغه عنه. فأية رفعة أعلى من هذه؟

ولما كان هذا شأن الكتاب ومن أنزله ذكر تعظيم هذا الكتاب وعلوه في السورة في أكثر من موضع، وتحدى المعاندين لأن يأتوا بسور من مثله في أكثر من موضع.

فقد قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وقال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فذكر أن ما ذكره من قصة نوح إنما هي من أنباء الغيب ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا، أي إن هذا أول علمهم به. وهل أدلّ من ذلك على أن هذا الكتاب إنما هو من علم الله وأنه أنزله إليه؟

وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ

﴿ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

فهل هناك أجلّ من هذا الكتاب؟!

إن معنى ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ «نظمت نظمًا رصينًا لا يقع فيه نقض ولا خلل» [١].

«وإن ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة» [٢].

ومعنى (فصلت) أنه فُصِّل فيها ما يحتاج إليه العباد[٣].

وجاءت (ثم) لترتيب الإخبار لا لترتيب الوقوع في الزمان.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى (ثم)؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل» [٤].

* * *

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

يحتمل أن يكون المعنى على التعليل، أي لئلا تعبدوا إلا الله، ولام التعليل حذفت وهو من الحذف المقيس، ويحتمل أن تكون (أن) مفسرة و(لا) ناهية، والمعنى (لا تعبدوا إلا الله). وقيل: المعنى (أمركم أن لا تعبدوا إلا الله) [٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٣.

(٣) الكشاف ٢/ ٨٩، وانظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١٣.

(٤) الكشاف ٢/ ٩٠، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.

(٥) انظر الكشاف ٢/ ٩٠، البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.

وجميع هذه المعاني محتملة وهي مرادة ، فإنه أحكم الآيات وفصلها لئلا يعبدوا إلا الله، وأنه نهاهم أن يعبدوا إلا الله،وأمرهم بألا يعبدوا إلا الله .

وهذا من التوسع في المعنى ، فإنه جمع كل هذه المعاني في تعبير واحد. ولو قال: (لئلا تعبدوا) أو (أمركم بألا تعبدوا إلا الله) لدل على معنى واحد .

فإن كل المعاني المحتملة مرادة وأطلق التعبير ليشملها كلها والله أعلم .

وقال (إنني) بذكر نون الوقاية مع (إنّ) ولم يقل: (إني لكم منه نذير وبشير) بنون (إنّ) وحدها ، وذلك أنه ذكر وصفين للكتاب هما الإحكام والتفصيل ففصل بذكر النونين، وذكر وصفين في المبلغ وهما الإنذار والبشارة ، فقال: (نذير وبشير) فناسب ذلك أيضًا أن يذكر النونين: نون إن[١] ونون الوقاية .

ويدلك على ذلك أنه إذا أفرد الإنذار قال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بنون (إن) وحدها في أكثر من موضع[٢] . فلما زاد البشارة على الإنذار ذكر نونًا أخرى .

وقدم الإنذار على البشارة ههنا ذلك أن جو السورة إنما هو في إنذارات الرسل لأقوامهم .

في حين قدم البشارة على الإنذار في سورة فصلت فقال: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: ١ ـ ٤] ذلك أنه ذكر أنه

---

(١) هما في الحقيقة نونان لا نون واحدة.

(٢) انظر سورة هود: ٢٥، الحجر: ٨٩، الذاريات: ٥٠، ٥١، نوح: ٢.

تنزيل من الرحمن الرحيم فناسب تقديم البشارة مع اسميه الرحمن الرحيم ولا يناسب تقديم الإنذار.

ولما قَدَّم البشارة في سورة فصلت ذكر بشارة الملائكة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

ومن الملاحظ أنه لم يجمع رسول من الرسل على لسانه أنه بشير ونذير إلا سيدنا محمد فقد قال في الأعراف: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال ههنا في سورة هود: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

وقدم الجار والمجرور (لكم) على (منه) لأنهم هم المخاطبون وهم المنذرون وهم المأمورون بالعبادة والكلام عليهم لا على الله.

وقد تقول: ولم يقول أحيانًا (إني لم منه نذير مبين) بذكر (منه) كما في الذاريات ٥٠، ٥١، ويقول في سياق آخر: (إني لكم نذير مبين) من دون ذكر (منه) كما في هود ٢٥، نوح ٢؟

فنقول: إذا تقدم ما يعود عليه الضمير ذكر (منه)، وإن لم يتقدم ما يعود عليه الضمير لم يذكر (منه).

وإيضاح ذلك أنه قال في هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، فلا يصح أن يقول: (منه) لأنه لا يعود على شيء.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ١ ـ ٢] فلا يصح أن يقول

(منه) لأنه لا يعود على شيء.

بخلاف قوله تعالى في الذاريات: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠] فقد ذكر (منه) لأن الضمير يعود على لفظ الجلالة وهو (الله).

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥١] فقد عاد الضمير في (منه) على (الله).

وكذلك آية هود هذه وهي قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ فقد قال (منه) والضمير يعود على (الله).

ولو لم يقل (منه) لم يدل على أن الله هو الذي أمره بالإنذار والتبشير.

* * *

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]

قدم الاستغفار على التوبة لأن الاستغفار إنما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأما التوبة فتالية له، ومن شروطها عدم العودة على ما أسلف من المعصية.

جاء في (البحر المحيط): «أمر بالاستغفار من الذنوب ثم بالتوبة، وهما معنيان متباينان، لأن الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر، والمعنى أنه لا يبقى لها تبعة.

والتوبة الانسلاخ من المعاصي والندم على ما سلف منه والعزم على عدم العودة إليها» [1].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

وجاء في (تفسير الرازي): «في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف. . .

(الوجه الرابع): الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي.

والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله.

ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه. والاستعانة بفضل الله مقدمة على الاستعانة بسعي النفس»[١].

* * *

﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

المتاع الحسن هو الأمن النفسي واطمئنان القلب إلى ما قدر الله والرضا به والقناعة بما قسم الله له ورجاؤه في الله وثوابه وإفاضة النعم على المجتمع المؤمن والتكافل فيما بينهم ومعاونة أحدهم الآخر وسلامة النفس وسلامة المجتمع، وهذا كله من المتاع الحسن، بخلاف الكافر فإنه في قلق نفسي والخوف من زوال النعم والجزع عند المصيبة.

وهذا كله من المتاع الحسن وليس كل المتاع حسن.

جاء في (البحر المحيط): «المتاع الحسن: الرضا بالميسور والصبر على المقدور، أو حسن العمل وقطع الأمل، أو النعمة الكافية مع الصحة والعافية. . . أو لزوم القناعة وتوفيق الطاعة. . .

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٥.

وقال [يعني ابن عطية]: ووصف المتاع بالحسن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفي فرحه بالتقرب إليه بمفروضاته والسرور بمواعيده.

والكافر ليس في شيء من هذا» [(١)].

وسمى منافع الدنيا بالمتاع «لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها.

ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية» [(٢)].

* * *

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾

«الضمير في (فضله) يحتمل أن يعود على الله تعالى، أي يعطي في الآخرة كل من كان له فضل في علم الخير وزيادة ما تفضل به تعالى وزاده.

ويحتمل أن يعود على (كل) أي جزاء ذلك الفضل الذي عمله في الدنيا لا يبخس منه شيء» [(٣)].

فهذا التعبير يحتمل معنيين:

الأول: إن الضمير في (فضله) يعود على صاحب الفضل، فالله يؤتيه فضله لا يبخس منه شيئًا بل يزيده.

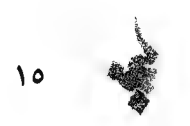
والآخر: أن يعود الضمير على الله، أي إن الله يؤتي فضله من كان ذا فضل.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.



والمعنيان صحيحان وهما مرادان وهو من التوسع في المعنى.

* * *

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

(تولّوا) أي تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفًا. ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر التاءين في هذا الفعل كان الموقف أشد، وإذا كان أخف خفف بحذف إحدى التاءين.

فقد ذكر ههنا أنه إن تولوا خاف عليهم عذاب يوم عظيم، ولم يقل إنه يعذبهم وإنما خاف عليهم العذاب، والخوف عليهم لا يقتضي وقوع المخوف.

في حين قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]

فقد ذكر أنهم إن تولوا يعذبهم عذابًا أليمًا ولم يقل إنه يخاف عليهم العذاب.

ثم إنه وصف العذاب بأنه أليم، وههنا وصف اليوم ولم يصف العذاب.

وقال على لسان هود لقومه: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] بتاءين. وقال على لسانه أيضًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧] بتاء واحدة.

وسياق الآية الأولى أشد، ذلك أنهم قالوا له بعد أن قال لهم ذلك: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٤].

في حين لم يقولوا شيئًا بعد قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]

فقد ذكر أنهم إن تولوا عن طاعة الله والرسول فإن الله لا يحب الكافرين ولم يذكر عذابهم أو عقابهم.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

والخطاب للمؤمنين، ولم يطلق التولي بل خصه بالتولي عن الرسول. ولما كان المخاطبون مؤمنين فإنه نهاهم عن شيء من التولي من باب التحذير.

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]

فلم يذكر عاقبة التولي إلا أن عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا.

في حين قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

* * *

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

اليوم الكبير هو يوم القيامة.

ولم يرد في القرآن (إنني أخاف) بنون الوقاية مع (إن).

* * *

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]

قَدَّم الخبر الجار والمجرور (إلى الله) على المبتدأ (مرجعكم) للدلالة على القصر والاختصاص، فإن المرجع إليه حصرًا لا إلى غيره[١].

وقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ ولم يقل: (إلى الله مرجعكم جميعًا) كما قال في آيات أخرى[٢]، ذلك أنه حيث ذكر الجميع ذكر جهات متعددة مختلفة ومعتقدات متباينة، بخلاف آية هود هذه فإنه ذكر جهة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ ذلك أن السياق الذي جرى فيه ذكر هذه الآية في ذكر معتقدات وأحوال اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، وذلك من الآية الحادية والأربعين إلى الآية السابعة والأربعين.

ثم يستمر الكلام على الملل المختلفة فناسب ذكر الجميع.

ونحو ذلك ما جاء في الآية الخامسة بعد المائة من سورة المائدة فإنها في سياق ذكر أكثر من جهة. فإن السياق في ذكر الكافرين والمؤمنين.

فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣ ـ ١٠٤].

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١٧.

(٢) انظر المائدة: ٤٨، ١٠٥، يونس: ٤.

ثم التفت إلى الذين آمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي إلى الله مرجعكم جميعًا من الكافرين والمؤمنين، فناسب ذكر الجميع.

وكذلك سياق آية يونس فإنه في ذكر أكثر من جهة. فهو في سياق جهتي الكافرين والمؤمنين.

فقد قال قبل هذه الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

فجعلهم قسمين:

القسم الأول: وهم المؤمنون الذين بشرهم ربهم.

والقسم الآخر: هم الكافرون الذين قالوا إن هذا لساحر مبين.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

فذكر المؤمنين والكافرين.

أما آية هود هذه فإن المخاطبين فيها صنف واحد.

قال تعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ

﴿مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ١ ـ ٤].

فالمخاطبون إما أن يستغفروا ربهم فيمتعهم أو يتولوا فيعذبهم، ولم يجعلهم قسمين: قسمًا مؤمنًا وآخر كافرًا. فهم إما أن يؤمنوا أو يتولوا.

في حين أن كل الذين قال فيهم: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ كانوا أكثر من صنف وأكثر من جهة.

* * *

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]

قيل: إن بعض المنافقين «كان إذا مرَّ بالرسول ﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يرى الرسول. . .

وقيل: فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسول ﷺ ولا يدخل أسماعهم القرآن» [١].

ومعنى (ثنى رأسه) طواه.

«وقيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثنوا صدورهم كالمتستر، وردّوا إليه ظهورهم، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعدًا منهم وكراهية للقائه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه أو عن الله تعالى، فنزلت الآية» [٢]

وذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون، ليدل على أنه يراهم ويراقبهم ويعلم فعلهم ونواياهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٣.



فأفاد التعبير الرؤية والمراقبة والعلم وليس مجرد العلم من دون رؤية ومراقبة.

وأفاد أنه حين يفعلون هذا الفعل يعلم ذلك ويعلم لِمَ فعلوه؟

ولئلا يظن أن علمه محصور فيما يفعل من ظواهر الأمور، وأن علمه مقيد في ذلك الحين قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ليدل على إطلاق علمه من غير تقييد. فَدَلَّ بذلك على أنه يعلم الإعلان والإسرار على كل حال عند الفعل وقبله وبعده.

فأفاد التعبير:

١ ـ الرؤية والمراقبة.

٢ ـ ذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم أي في وقت الفعل لا بعده بعد التأمل والتفكير أو الاستفسار أو مجيء الخبر أو ظهور ما يدل على ذلك فيما بعد.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه احتمالان:

الأول: أن تكون (ما) مصدرية، أي يعلم إسرارهم وإعلانهم.

والآخر: أن تكون اسمًا موصولاً. والمعنى أنه يعلم الذي يسرونه والذي يعلنونه من الأمور.

والمعنيان مرادان، فإنه يعلم الإسرار والذي يسرّونه، ويعلم الإعلان والذي يعلنونه.

وهذا من التوسع في المعنى، ولو ذكر العائد فقال: (ما يسرونه وما يعلنونه) لدل على شيء واحد وهو الاسم الموصول. فكان ما ذكره أولى لأنه عَمَّ المعنيين.

لقد قال هنا: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وقال في النمل: ﴿وَيَعْلَمُ

مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] فذكر الإخفاء دون الإسرار، ذلك أن الإسرار قد يكون في النفس كما قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧].

وقد تُسِرُّهُ إلى غيرك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]، وقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢].

وغالبًا ما يكون في الفعل والقول. جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الإسرار خلاف الإعلان. قال تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾... ويستعمل في الأعيان والمعاني...

وأسررت إلى فلان حديثًا: أفضيت إليه في خفية. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]...

فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه بالسر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره. فإذن قولهم: (أسررت إلى فلان) يقتضي من وجهٍ الإظهار ومن وجهٍ الإخفاء»[١].

وفي (لسان العرب): «أسرّ إليه حديثًا أي أفضى»[٢].

أما الإخفاء فكأنه أخفى من السر. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقد يكون في الأشياء التي تسترها عن الناظر من الحاجات والبضائع، تقول: (أخفيت البضاعة تحت الأرض أو في صندوق) أي سترتها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (سرر).

(٢) لسان العرب (سرر).

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «خفي الشيء خفية إذا استتر... وأخفيته: أوليته خفاء وذلك إذا سترته. ويقابل به الإبداء والإعلان» (١).

أما قوله تعالى في النمل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] دون (ما تسرون وما تعلنون) فالسياق يوضح ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ذلك أنه ذكر أنه يخرج الخبء. أي ما هو خافٍ أو مُخفى.

والخبء «يقال لكل مدّخر مستور» (٢). و«خبأ الشيء يخبؤه: ستره... الخبء كل ما غاب» (٣).

فلما ذكر المخبوء ناسب ذكر الإخفاء لأن المخبأ مخفى.

وقال تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

فقال: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم﴾ ولم يقل: (وأنا أعلم بما أسررتم وما أعلنتم) ذلك لأنه أفاد أنه يعلم الدافع الذي أخفوه في أنفسهم من هذا الإسرار. فإنك قد تسرّ شيئًا لشخص وأنت تبتغي غرضًا من ذلك تخفيه في نفسك، فربنا يعلم ذلك الأمر وماذا أخفيت. ولو قال: (وأنا أعلم بما أسررتم) لكان ذلك ينصرف إلى إسرارهم بالمودة دون الغرض الذي يخفيه أصحابه.

وقال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خفي).
(٢) المفردات (خبء).
(٣) لسان العرب (خبأ).

دون (ما نسرّ وما نعلن) ذلك لأنه قال بعدها: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقال في موطن آخر: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] دون (ما يسرون) أو (ما يخفون) وذلك لسبب آخر. فإن (الكِنّ) هو ما تحفظ فيه من الأشياء التي تريد صونها. والكِنّ «ما يحفظ فيه الشيء، يقال: كننت الشيء كَنًّا جعلته في كِنّ وخُصّ. وكننت بما يُستر ببيت أو ثوب وغير ذلك من الأجسام...

وأكننت بما يستر في النفس... وجمع الكِنّ أكنان.

والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء» [1].

وفي (لسان العرب): «الكِنّ والكِنّة والكِنان: وقاء كل شيء وستره... كننت الشيء أي جعلته في كن... والأكنة: الأغطية» [2].

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١] أي وقاء وسترًا تحتمون بها وتحفظون أنفسكم.

وقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أي في صناديق مقفلة فلا يصل إليها شيء من دعوته.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

وذات الصدور «الأسرار المستكنة فيها أو القلوب التي في الصدور» [3].

---

(١) مفردات الراغب (كنّ).
(٢) لسان العرب (كنن).
(٣) روح المعاني ١١/ ٢١١.



وقال (عليم) دون (يعلم) للدلالة على ثبوت العلم ودوامه.

جاء في (روح المعاني): «وكان التعبير بالجملة الاسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالمًا بذلك. وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي»[١].

وقال: (عليم) دون (عالم) أو (علاّم)، لأن كلمة (عالم) خُصت في الاستعمال القرآني بعلم (الغيب) مفردًا، أو (علم الغيب والشهادة)، ولم تستعمل في غير ذلك، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، وقوله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وأما (علاّم) فقد خص استعمالها متعلقة بـ(الغيوب) جمع الغيب نحو ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩ ـ ١١٦] وذلك أنه لما كان هذا الوصف للمبالغة والتكثير جاء بالجمع معه مناسبة للتكثير.

وأما (عليم) فقد استعملها غير مختصة بمعلوم معين، فقد يستعملها مطلقة من كل متعلق نحو ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، أو يجعلها متعلقة بكل شيء فلا تترك شيئًا إلا شملته نحو ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. أو يعلقها بمجموع ولا يعلقها بمفرد نحو ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]، أو يعلقها بما ارتبط بالمجموع وذلك نحو ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥] فإنه جمع الفاعلين فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فذكر الصدور وليس صدرًا واحدًا[٢].

---

(١) روح المعاني ١١/٢١١.

(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني).

فاتضح ما قلناه.

* * *

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦]

«الدابة اسم لكل حيوان ذي روح ذكرًا كان أو أنثى، عاقلاً أو غيره»[١] ويحتاج إلى رزق[٢].

والمعنى: أن كل دابة في الأرض ضَمِنَ الله لها رزقها وهو يعلم مستقرها، وهو الموضع الذي استقرت فيه قبل مجيئها إلى هذه الدنيا سواء كانت في صُلب أم رحم أم بيضة. وما تستقر فيه حيث تأوي إليه من الأرض. ويعلم مستودعها وهو الموضع الذي تموت فيه وتدفن[٣].

وقد تقول: ولم قال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فخص الدابة التي في الأرض ولم يذكر ما في السماء مع أنه ذكر دوابّ السماء في آية أخرى. قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ ﴾ [الشورى: ٢٩]؟

فنقول: إن السياق قبل الآية وبعدها على من في الأرض وعلى سكان الأرض، بل إن السورة عمومًا في الكلام على أهل الأرض والأمم التي عاشت فيها.

فناسب ذكر دواب الأرض.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٤.
(٣) انظر الكشاف ٢/ ٩١، البحر المحيط ٥/ ٢٠٤.

ثم إنه سبق أن قال في آية قبل هذه الآية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] فذكر قدرته على كل شيء، فدخل في ذلك دواب السماء وغيرها.

وإضافة إلى ذلك فإنه قال بعد هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [هود: ٧] فذكر أنه هو الذي خلقهما فدخل في ذلك دوابّهما.

وقال في آخر السورة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فذكر أن له غيب السماوات والأرض حصرًا لا لغيره، وأنه إليه يرجع الأمر كله حصرًا لا إلى غيره. فلا أمر من الأمور خارج عنه وعن إرادته، فدخل في ذلك دواب الأرض والسماء وإن أمر ذلك راجع إليه. فتضمن ذلك دخول دواب السماء في أمره كدخول دواب الأرض، غير أنه لما كان السياق في سكان الأرض ناسب ذكر ما يسكن في الأرض من الدواب.

ومن الطريف أن نذكر أيضًا أنه ذكر الأرض في السورة أكثر مما ذكر السماء والسماوات.

فقد ذكر الأرض في السورة إحدى عشرة مرة، وذكر السماء والسماوات ست مرات، مما يدل على أن الجو العام إنما هو في الأرض أكثر مما في السماء والله أعلم.

إن هذه الآية متصلة بقوله تعالى في آية سابقة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذلك لأن الذي يضمن لكل دابة رزقها ويوصله إليها إنما هو على كل شيء قدير.

ومتصلة بقوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإنه ذكر جانبًا من علمه هناك، وذكر جانبًا آخر هنا. فإن الذي يعلم مكان كل دابة في الأرض ويوصل إليها رزقها ويعلم

مستقرها ومستودعها إنما هو الذي يعلم الإسرار والإعلان وهو العليم بذات الصدور.

ثم ذكر علمه بكل دابة في الأرض ومكانها ومستقرها فاستغرق علمه بكل الأحياء.

ثم ذكر علمه الذي لا يحد ، فإنه علم كل ذلك قبل وجود هذه الأشياء وسطر ذلك في كتاب مبين في اللوح المحفوظ.

أما تأليف الآية فإنه جاء فيها بـ (من) الاستغراقية التي تستغرق كل ما يدبّ على الأرض.

ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقدم الخبر (على الله) على المبتدأ (رزقها) وذلك للحصر للدلالة على أن رزقها عليه حصرًا لا على غيره. ولو قال: (إلا رزقها على الله) لم يفد أن رزقها عليه حصراً.

فهناك قصران:

الأول: (إلا) في الاستثناء المفرغ.

والآخر: تقديم الخبر.

وقد تقول: لو قال: (كل دابة على الله رزقها) لأفاد العموم أيضًا لأن كلمة (كل) تفيد العموم.

فنقول: إن هذا التعبير الذي ذكرته لا يفيد قصر المبتدأ على جملة الخبر وإنما هو إخبار من غير قصر ، وإنما القصر في جملة الخبر (على الله رزقها) وليس في (كل) مع جملة الخبر.

أما التعبير القرآني فإنه أفاد أنه حصر كل دابة على رزق الله وحصر الرزق على الله. وإيضاح ذلك أنك تقول:

(كل رجل كتابًا قرأ)



وتقول: (ما من رجل إلا قرأ كتابًا)

وتقول: (ما من رجل إلا كتابًا قرأ)

فالجملة الأولى خصصت فيها القراءة بالكتاب وأنه لم يقرأ غير الكتاب.

والجملة الثانية خصصت فيها الرجل بقراءة الكتاب، ولم تخص القراءة بالكتاب دون غيره، فقد يكون قرأ أيضًا غير كتاب. فقد ذكرت أن كل رجل قرأ كتابًا ولم يبق رجل لم يقرأ كتابًا. فأخبرت عنهم جميعًا أنهم قرؤوا كتبًا ولم تستثن أحدًا من قراءة الكتاب، غير أنه قد يكون فيهم من قرأ غير كتاب أيضًا، فقد يكون قرأ مجلة أو غير ذلك مما يُقرأ.

فإن قلت: (ما من رجل إلا كتابًا قرأ) كنت خصصت الرجل بالقراءة، وخصصت القراءة بالكتاب.

فالآية تفيد حصر الدابة على رزق الله، وحصر الرزق على الله.

ثم قال: (كلّ) أي كل ذلك عن كل دابة مدون في كتاب قبل خلقها.

وهذا الكتاب يبين كل شيء عنها.

فتضمنت الآية قدرة الله وعلمه على أتم حال.

١ ـ فقد جاء بـ(من) الاستغراقية الدالة على الشمول.

٢ ـ وقال: (دابة) وهو يشمل كل ما يدب من الأحياء وهو أعم شيء في الأحياء.

٣ ـ وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ فقصر الرزق على الله دون غيره.

٤ ـ وقال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ فقصر الدابة على رزق الله.

٥ ـ وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ ولم يقل (الله يرزقها) مثلاً للدلالة على أنه

ضمن لكل دابة رزقها وتكفل بذلك فهو يوصله إليها.

٦ ـ وقال ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، والتقدير: (وما من دابة إلا يعلم الله مستقرها ومستودعها) فلا تندّ عن علمه دابة.

٧ ـ قال: (مستقرها) وهو يشمل كل موضع تستقر فيه أو استقرت فيه وكل أنواع الاستقرار سواء كان ذلك قبل مجيئها على هذه الحياة أو في حال وجودها في هذه الحياة أو بعد ذلك حيث كانت أو حيث تكون ، وأين كانت قبل مجيئها سواء كانت في رحم أم بيضة أم صلب ، وبعد مجيئها حيث تستقر وتأوي وحيث تكون بعد هلاكها.

ويعلم استقرارها أيضًا ، فكلمة (مستقر) تدل على اسم المكان والمصدر واسم الزمان. فهو يعلم الاستقرار وموضع الاستقرار وزمان ذلك ومتى يكون.

٨ ـ وقال: (ومستودعها) بعد الموت وحيث تتفرق أجزاؤها.

فعلم كل أحوالها من السكون والحركة في الحياة وقبل الحياة وبعد الموت.

وقد تقول: إنه ذكر المستقر والمستودع ، والمستقر هو موضع الاستقرار ، والمستودع حيث تهلك وحيث مدفنها ، ولكنه لم يذكر هنا أنه يعلم مكان تحركها.

فنقول: لما قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ دَلَّ ذلك على أنه يوصله إليها حيث كانت ، متحركة أوساكنة ، فشمل علمه كل شيء من أحوالها.

٩ ـ وقال (كلٌّ) وهي أدل لفظة على العموم ، أي كل دابة وكل أحوالها وكل شيء عنها وما ضمن لها من رزق إنما هو مدون في كتاب.

١٠ ـ (في كتاب) أي مدون ومسطور قبل الخلق، وذلك يدل على عظيم علمه وقدرته، فإنه علم كل شيء قبل وجوده، وإنَّ كل شيء يكون على ما دوّن. وذلك يدل على عظيم العلم والقدرة.

١١ ـ وقال: (مبين) أي مبين كل شيء عنها بالتفصيل.

* * *

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٧]

بعد أن ذكر قدرته وعلمه بالبشر وعموم الأحياء ذكر قدرته وعلمه بعموم الخلق فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي هو لا غيره.

فهو الذي خلقهن حصرًا فلمَ يعبد سكانهما غيره؟

فارتبط ذلك بقوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ ﴾ [هود: ٢].

وقال: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ فدل على أنه الملك والمالك والحاكم لأن صاحب العرش هو الملك.

ودل على أن ملكه وحكمه قديمان، فإنه الملك قبل أن يخلق السماوات والأرض فإنه كان عرشه على الماء. فهو رب العرش العظيم ورب ما كان عليه العرش.

وقال: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ أي ليختبركم، ومعنى ذلك أنه خلق السماوات والأرض لحكمة وليس عبثًا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩] فدل على أنه حكيم.

ثم ذكر عاقبة هذا الابتلاء وأنه لم يتركهم سدى، بل سيبعثهم بعد

الموت ليجزيهم على ما قدموا فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فدل على أن لهذا الاختبار جزاء بعد الموت.

١ ـ فارتبط قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

٢ ـ وارتبط ذلك بقوله: ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فإن الذي خلق السماوات والأرض بهذا النظام المحكم الدقيق إنما هو حكيم خبير.

٣ ـ وارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ بمعنى الحكم. فصاحب العرش إنما هو الحاكم.

٤ ـ ودل قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بأن حكمه وملكه قديمان وليسا حادثين، فإن ذلك قبل خلق السماوات والأرض.

٥ ـ ودل قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنه إنما فعل ذلك لحكمة، فارتبط ذلك بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ بمعنى الحكمة والخبرة.

والذي يعلم أحسن الأعمال إنما هو الخبير.

فارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ باسمه الحكيم من الحكم.

وارتبط قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ باسمه الحكيم من الحكمة، وارتبط باسمه الحكيم من الحكم والقضاء؛ لأن الذي يحكم في الأعمال حسنها وأحسنها إنما هو الحاكم ذو الحكمة.

٦ ـ وارتبط قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ وارتبط قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] ذلك أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان بمقدوره أن يقول لها: (كن) فتكون، ولكن إنما فعل ذلك لحكمة، فقد خلق السنن الكونية وجعلها تعمل بقدرته وتقديره. وقد يكون إنما فعل ذلك ليعلّم عباده الصبر، فإنه أمر بالصبر بعد بعض الآيات التي ذكرت ذلك، فقد قال في سورة (ق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

فإذا ذكر أيامًا معدودات لخلق السماوات والأرض وهي ستة أيام وذلك لحكمة أرادها فإنه قد يؤخر العذاب إلى أمة معدودة تقتضيها حكمته.

فدلت هذه الآية على أنه حي عالم قدير حكيم خبير.

واقتضى ذلك ألاّ يعبد غيره. وكيف يعبد غيره وهو الخالق القادر الرازق العالم المحيي المميت الباعث؟

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أي إنك تزين هذا الأمر بحديثك وتعدهم بالبعث بعد الموت ليطيعوك فتسحرهم بقولك وتؤثر فيهم تأثير السحر مع أن كلامك باطل ببطلان السحر، وقد قال أحدهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ «باتّين القول ببطلانه... ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أن السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر، تشبيهًا له به. أو أشاروا بهذا إلى

القرآن ، لأن القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره» [١] .

وجاء في (تفسير الرازي) : «قال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازًا لهم على الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم . . .

الثالث : إن القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا في القرآن بكونه سحرًا لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع» [٢] .

* * *

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : ٨]

أسند تأخير العذاب إلى نفسه سبحانه فقال : (أخرنا) ، ثم قال : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ولم يقل : (ليس منصرفًا عنهم) ليدل على أن العذاب لا ينصرف من نفسه وإنما يصرفه صارف .

كما لم يقل : (ألا يوم يأتيهم لا نصرفه عنهم) فيسند عدم صرف العذاب إلى نفسه وإنما جعله اسم مفعول .

فأسند تأخير العذاب إلى نفسه ، ولم ينسب عدم صرفه إلى نفسه سبحانه إشارة إلى رحمته بخلقه .

والأمّة : هي المدة من الزمان .

ومعنى الآية : أن الذين كفروا إذا تأخر عنهم ما يوعدون من العذاب

---

(١) الكشاف ٢/ ٩١ .

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٢٠ .

استهزؤا وقالوا: ما يحبسه؟ أي: أيّ شيء يمنعه من الوقوع؟ يقولون ذلك استهزاء.

فقال ربنا: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فقال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ولم يقل: (ألا يوم نأتي به) فأسند الإتيان إلى العذاب ولم يسنده إتيانه إلى نفسه.

فأنت ترى أنه أسند التأخير إليه سبحانه، وأسند الإتيان إلى العذاب لا إليه سبحانه. ونفى الصرف بصيغة اسم المفعول ولم يقل: (لا نصرفه عنهم). كل ذلك تلطفًا بعباده لعلهم يرجعون إليه.

وقال: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ «على لفظ الماضي مع أنه لم يقع مبالغة في التأكيد والتقرير»[(١)]. والفعل (حاق) يقال لما يصيب الإنسان من مكروه وسوء.

لقد قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعل استهزاءهم هو الذي حاق بهم وهو الذي أوجب عليهم العذاب. فهذا الذي وقع بهم إنما كان مما كسبت أيديهم وليس ظلمًا واقعًا عليهم، وإنما هو من ظلمهم لأنفسهم.

وقدم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ على قوله: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، قيل: وهو متعلق بقوله: ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ وأصل التعبير (ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم).

ومنع قسم من النحاة مثل هذا التقديم، قالوا: لأن خبر (ليس) لا

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢١.

يتقدم عليها لأنها فعل جامد فلا يتقدم معمول الخبر عليها. وخَرَّجوا التعبير على تقدير آخر.

وقد تقول: ولماذا هذا التقديم، ولماذا لم يأت به على الأصل فيقول: (ألا ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم)؟

فنقول: إن التعبير القرآني أولى، ذلك لأنه لو قال: (ألا ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم) لنفى صرف العذاب يوم يأتيهم، ولكنه قد يصرف في يوم آخر. كما تقول: (لست مسافرًا يوم الجمعة) فإنك قد تسافر في يوم آخر.

وأما التعبير القرآني فقد ذكرت فيه توجيهات غير التقديم:

منها: تقدير فعل يتعلق به الظرف وهو (ألا يلازمهم يوم يأتيهم) أو نحوه.

ومنها: أن يعرب (يوم) مبتدأ مبنيًا على الفتح[1] لأنه أضيف إلى جملة وإن كان فعلها معربًا، وهذا ما جوزه الكوفيون وآخرون ومنعه الجمهور.

فيكون (يوم يأتيهم) مبتدأ ليس متعلقًا بشيء وجملة ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ خبرًا عنه. وعلى ذلك يكون عدم الانصراف مطلقًا غير مقيد بزمن.

ويؤيد هذين التقديرين قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأطلقه ولم يقيده. فيكون التعبير القرآني أولى، ويكون تقدير الآخرين مرجوحًا، حتى أننا لو قلنا بجواز التقديم في مثل هذا التعبير فإن المعنى يضعف على جعل (يوم) متعلقًا بمصروف كما رأيت. وهو نظير ما يجوز فيه أوجه إعرابية متعددة بعضها أرجح من بعض.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٥.

وقد تقول: ولماذا لم يقل: (ألا يومُ يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم على الابتداء ويزول الإشكال ويخرج من الندرة أو الضعف ومن الاختلاف في بناء نحو هذا، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] برفع (يوم)؟

فنقول: لو قال ذلك لكان المعنى ضعيفًا أيضًا، ذلك أنه لو قال: (ألا يومُ يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم كانت جملة (ليس مصروفًا عنهم) خبرًا عن اليوم وسيكون المعنى أن اليوم لا ينصرف، في حين أن المقصود أن العذاب لا ينصرف وليس اليوم، وإنما اليوم مصروف لا محالة.

وهذا الضعف حاصل على تقدير إعرابه مبتدأ مع بنائه على الفتح أيضًا.

والذي نراه راجحًا في هذا هو تقدير عامل للظرف (يوم) وهو (يلازمهم) أو نحوه لسلامته مما ذكرناه، ويؤيده قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعله مطلقًا ولم يقيده بزمن والله أعلم فيكون التعبير القرآني أولى من كل ما يذكر.

ثم إنك ترى أنه لم يذكر نوع العذاب وإنما قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعل استهزاءهم وفعلهم هو الذي يحدد العذاب الذي سيلحقهم وهو الذي يحيق بهم، فلا يقول قائل إنه أقل مما يستحقون أو أكثر مما يستحقون. وهو منتهى العدل، والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾

[هود: ٩]

ذاق الشيء: خبره وجرّبه. والذوق يكون بالفم وبغير الفم، ويكون في المحمود والمكروه[١]. وهو يصلح للقليل والكثير[٢]. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وهذا من الذوق القليل.

وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. والعذاب هنا دائم مستمر لا ينقطع، واستعمل له الذوق.

وقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وهو نحو ما مرَّ.

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٨ ـ ٣٩]، فذكر أنَّ العذاب مستقر، أي ثابت لا يتحول، ثم قال: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وهو عذاب متصل وقد عبر عنه بالذوق.

وقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] فوصفه بأنه عذاب كبير.

وقال: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠] فوصفه بأنه عذاب شديد.

والرحمة نعمة من صحة أو مال أو كل ما تقتضيه راحة البال، ونزعها سلبها. واليؤوس «شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع.

---

(١) انظر لسان العرب (ذوق)، المصباح المنير (ذوق).

(٢) انظر مفردات الراغب (ذوق).

﴿كَفُورٌ﴾ : عظيم الكفران لما سلف من التقلب في نعمة الله نسّاء له»[(١)].

وهذا تبيين لحال الإنسان وهي أنه إذا سلبت منه نعمة كان يتقلب فيها يئس من عودتها ، وكفر النعمة التي كان ينعم فيها إلا ممن استثناه الله فيما ذكر بعد.

وقد قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة فقال: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ، في حين أخره عنها في موضع آخر ، فقد قال في فصلت: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

فقدَّم الرحمة وأخَّر الجار والمجرور (منا) ذلك أنه في آية هود ذكر ما يفعله نزع الرحمة لا ما تفعله الرحمة فأخرها ، لأن الكلام ليس عليها بل على نزعها.

وأما في آية فصلت فإن الكلام على ما تفعله الرحمة بعد الضراء. فآية هود في نزع الرحمة فأخرها ، وأما آية فصلت فالكلام على الرحمة فقدمها.

لقد ختم آية هود هذه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ فختمها باليأس والكفران.

وفي آية أخرى ختمها باليأس والقنوط. فقد قال في فصلت: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]

فختمها بقوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ والقنوط شدة اليأس من الخير ، ذلك ـ والله أعلم ـ أنه في هود ذكر أمرين: إذاقة الرحمة ونزعها ، وبين أن

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٢.

الإنسان إذا سلبت منه النعمة التي كان يتقلب فيها أدركه اليأس ولم يشكر ما سلف من نعمة الله عليه فهو يؤوس كفور ، مع أن إذاقة الرحمة تقتضي الشكر وأن نزعها يقتضي الصبر والدعاء والرجاء غير أنه يئس وكفر .

وأما في فصلت فلم يذكر نعمة أو خيرًا أصابه قبل أن يمسّه الشر وإنما ذكر مَسَّ الشر فحسب .

وأما قبل ذلك فلم يذكر أنه مسه خير أو أصابته حسنة ، وإنما قال: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وهذا لا يدل على حال بعينها من نعمة أو سوء .

ولما ذكر مَسَّ الشر له فحسب جاء بصفتين من صفات اليأس ، فقال: (يؤوس قنوط) .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

[هود: ١٠ ـ ١١]

النعماء: قيل: هي «إنعام يظهر أثره على صاحبه.

والضراء: مضرة يظهر أثرها على صاحبها . . .

وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء ، والمضرة والضراء» [١] .

وقال: ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ بتذكير الفعل (ذهب) ، ولم يقل: (ذهبت السيئات عني) ، وهذا جارٍ في جميع القرآن إذا جعل السيئات فاعلاً فإنه يذكّر الفعل. قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨] ، وقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١] ، وقال:

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢٢.

﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١] ، وقال: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣].

وذلك مراعاة للمعنى والله أعلم ، إذ المقصود أنه يصيبهم جزاء السيئات وما توجبه السيئات من العذاب ونحو ذلك ، فذكّر لأنه أراد معنى المذكر ، ويوضح ذلك قوله: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١].

بتذكير الفعلين (أصابهم) و(سيصيبهم) ذلك أنه ليس المقصود أنه أصابتهم سيئات أعمالهم ، وإنما المقصود أنه أصابهم عذاب هذه السيئات أو جزاء هذه السيئات ، ولذلك قال: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إشارة إلى العذاب الذي حل بهم. ثم هَدَّد من كان في زمنه من الظالمين قائلاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] أي سيصيبهم جزاء سيئاتهم وما يستحقون من العذاب ولذا قال: ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

فذكّر الفعل إشارة إلى المعنى.

وأراد هنا بقوله: ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ ذهاب البؤس وذهاب سيّء العيش وزوال ما ساءه منه فذكّر الفعل مراعاة للمعنى ، وليس المقصود ذهاب السيئات من الأعمال التي يعملها الفرد ، والله أعلم.

والفرِح الأشر البطر «وهذا الفرح مطلق فلذلك ذم المتصف به ولم يأت في القرآن للمدح إلا مقيدًا بما فيه خير كقوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]» [1].

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٦.

والفخور: هو الذي يفخر على الناس بما عنده ، وهنا يفخر على الناس «بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر» [١] .

ولم تأت كلمة (فخور) في القرآن إلا في ذم من اتصف بها ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما أصابهم من الضراء .

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في كل أحوالهم سواء في حال الضراء أو النعماء .

ومن العمل الصالح شكرهم لربهم على ما أنعم عليهم فأولئك لهم مغفرة ؛ لأن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، والمصائب كفارة للذنوب . فذكر المغفرة لأن ما أصابهم من الضراء مدعاة للمغفرة إذا صبر صاحبها .

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وذلك لأن هذا الأجر أصابهم في حالتي الضراء والنعماء ، ففي الضراء نالهم أجر الصابرين المحتسبين ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠] ، وفي حال النعماء نالهم أجر الشاكرين إضافة على أجر العمل الصالح الذي ذكره في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فكان الأجر كبيرًا .

جاء في (البحر المحيط): «واستثنى تعالى الصابرين يعني على الضراء وعاملي الصالحات ، ومنها الشكر على النعماء ، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم يقتضي زوال العقاب والخلاص منه ، وأجر كبير هو الجنة ، فيقتضي الفوز بالثواب» [٢] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٢ .
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٦ .

وجاء في (روح المعاني): «وأيًّا ما كان فالمراد صبروا على ما أصابهم من الضراء سابقًا أو لاحقًا إيمانًا بالله تعالى واستسلامًا لقضائه. . .

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا على نعمه سبحانه السابقة واللاحقة. قال المدقق في الكشف: لما تضمن اليأس عدم الصبر، والكفران عدم الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده ممن اتصف بالصبر والشكر. فلما قيل: (إلا الذين). . . إلخ كان بمنزلة إلا الذين صبروا وشكروا»[(١)].

وذكر أحوال الإنسان في حالي إذاقة الرحمة ونزعها، وحالي إذاقة النعماء ومس الضراء، بياناً لما تقدم من قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فإن هذا من البلاء في السراء والضراء.

جاء في (روح المعاني): «وقال بعض المحققين: إن وجه التعلق من حيث إن إذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الإجمال في قوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾»[(٢)].

ومن الملاحظ أنه أسند مظاهر الرحمة والخير إلى نفسه سبحانه دون مقابلها فقد قال: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ فأسند تأخير العذاب إلى نفسه، في حين قال: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ فأسند إتيانه إلى العذاب لا إليه سبحانه، فلم يقل: (ألا يوم نأتي به)، كما سبق أن ذكرنا.

وقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ فأسند إذاقة الرحمة إلى نفسه.

وقال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ فأسند إذاقة النعماء إلى نفسه.

---

(١) روح المعاني ١٢/١٦.

(٢) روح المعاني ١٢/١٦.

في حين قال: ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ فأسند المَسَّ إلى الضراء ولم يقل: (بعدما مسسناه بالضر) ونحوه، كل ذلك من باب إسناد الخير إلى نفسه سبحانه دون السوء والشر.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾.

فنقول: إن هذا ما يقتضيه قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾فإن البلاء يكون في السراء والضراء، والخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ومع ذلك فقد اختار أهون الأمور، فلم يقل: (مسسناه بالشر) أو (مسسناه بالسوء) ونحو ذلك، وإنما قال: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ أي أعاده إلى حالته قبل إذاقته الرحمة. وهو كما يعطي أحد أحدًا شيئًا على سبيل الاختبار ثم يسترجعه منه ليرى كيف يفعل.

فهو لم يقل إنه أصابه بالضر أو بالسوء أو بالشر، وإنما قال أذاقه شيئًا ثم أعاده ليختبره. وهو أخف من إصابته بالضراء أو بالشر أو نحوه.

جاء في (روح المعاني): «وفي إسناد الإذاقة إليه تعالى دون المس إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مَسِّ الضُّرِّ بل هو مقصود بالعرض... وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في أدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى ولعله يقوي عظم شأن الرحمة»[1].

ثم لننظر نسق الآيات وترتيبها:

فقد بدأ بعموم المكلفين وطلب منهم أن لا يعبدوا إلا الله.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥.

ثم خص الكافرين بالذكر وذلك قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ ثم ذكر ما هو أعم وهو كل دابة في الأرض فقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

ثم عاد إلى ذكر عموم المكلفين فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

ثم خص الكافرين فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم ذكر ما هو أعم وهو الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾.

فكان النسق على النحو الآتي:

عموم المكلفين ـ الكافرين ـ ما هو أعم وهو كل دابة.

عموم المكلفين ـ الكافرين ـ ما هو أعم.

ثم إنه بدأ وانتهى بالكتاب، فقد بدأ بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

وانتهى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ . . . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [هود: ١٢ ـ ١٣].

فكان النسق في ترتيب الآيات واحدًا.

* * *

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنه لما ذكر الذين صبروا في الآية السابقة أشار إلى ما يقتضي الصبر في هذه الآية، ذلك أنه في مثل هذا

الضيق ينبغي الصبر، الصبر على ما يجد في نفسه، والصبر على ما يقولون.

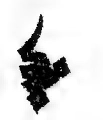
قيل: و(لعل) في نحو هذا تفيد الزجر «والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر: لعلك تقدر أن تفعل كذا، مع أنه لا شك فيه. ويقول لولده لو أمره: (لعلك تقصر فيما أمرتك به) ويريد توكيد الأمر، فمعناه: لا تترك» [١].

وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ولم يقل: (تارك ما يوحى إليك) لِيُحَذِّره من ترك أي شيء من أمور الدين بسبب أقوال الكافرين واستهزائهم، بل إن عليه أن يبلغه كله أيًّا كان موقف الكافرين منه، ومهما سبب ذلك من ضيق في صدره «وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم وتهاونهم به وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم، (أن يقولوا) مخافة أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه» [٢].

وقال: (ضائق) ولم يقل: (ضيق) «ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا. ومثله قولك: زَيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد» [٣].

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٢.



وذلك لأن اسم الفاعل يدل عل الحدوث ، بخلاف الصفة المشهبة فإنها تدل على الثبوت. فـ (حسن) يدل على الثبوت و(حاسن) يدل على الحدوث ، تقول: (هو حاسن غدًا) أي سيحسن ، ونحوه: كريم وكارم.

جاء في (البحر المحيط): «وليس هذا الحكم مختصًا بهذه الألفاظ ، بل كل ما يبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن (فاعل) رد إليه إذا أريد معنى الحدوث ، فنقول: حاسن من حسن ، وثاقل من ثقل ، وفارح من فرح ، وسامن من سمن» [(١)].

وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ ﴾ بتنوين (تارك) ولم يقلها بالإضافة ، للدلالة على تحذيره من فعل ذلك في المستقبل ، أي لعلك ستترك ؛ لأن إعمال اسم الفاعل شرطه أن يدل على الحال أو الاستقبال. ولو قالها بالإضافة لاحتمل المضيّ أيضًا فيكون الزجر عما فعل ، أي لعلك تركت بعض ما يوحى إليك ، فهو يحذره من أن يكون قد ترك بعض ما يوحى إليه. وهذا لا يصح ، إذ هو ﷺ أحرص الخلق على تبليغ الوحي.

وقَدَّم ﴿ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ على ﴿ضَائِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ مع أنه قد يكون ضِيْقُ الصدر سببًا للترك ، ذلك أنه قدم ما هو الأهم وهو ما يوحى إليه ، فإن ترك بعض ما يوحى إليه هو أهم وأخطر من ضيق الصدر. وقد يضيق صدر المرء من شيء غير أنه لا يترك الأهم. وقد ذكر ربنا عن رسوله في موطن آخر أنه يضيق صدره بما يقولون فأرشده إلى التسبيح والصلاة فقال: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ فقدَّم (به) على الصدر ، ولم يقل:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٧.

(وضائق صدرك به) ذلك لأن المجرور وهو الهاء في (به) يعود على بعض ما يوحى إليه وهو أهم من الفاعل ، فقدم ما هو أهم. ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فقدم (الصدر) على (ما يقولون) لأن صدره ﷺ أهم مما يقوله المستهزئون؟

وقال: ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ ولم يقل: (أن قالوا) أو (لقولهم) ذلك أن قوله: ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ يفيد الدوام والاستمرار ، أي لأنهم يقولون ذلك. أما (أن قالوا) فإنه يفيد أنهم قالوه في الماضي وانتهى الأمر ، وقد يكونون قالوه مرة واحدة.

وكذلك لو قال: (لقولهم) فإنه يحتمل المضي وأنهم قالوه مرة واحدة. في حين أنهم يقولون ذلك باستمرار مما يدعو إلى ضيق صدره ﷺ بذاك.

﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ «أي مال كثير ، وعبَّروا بالإنزال دون الإعطاء لأن مرادهم التعجيز بكون ذلك على خلاف العادة ، لأن الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء. ويحتمل أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاء من دون سبب عادي» (١).

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ «أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا.

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه وكِلْ أمرك إليه» (٢).

* * *

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم

---

(١) روح المعاني ١٢/١٩.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٠٦.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤]

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنهم إنما يقولون: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك أو نحو ذلك لعدم تصديقهم برسالته ﷺ، وأنهم يرون أن ما يأتي به إنما هو افتراء، فذكر ذلك ههنا وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله وأن يفتروا هم كما افترى وأن يدعوا كل من يستطيعون ليفعلوا ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية في القرآن الكريم) هذه الآية وما كان نحوها من آيات التحدي وبينا ما فيها من أمور بيانية فلا نعيد القول فيها.

جاء في (البحر المحيط): «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها لا تتعلق أطماعهم بأن يترك بعض ما يوحى إليه إلا لدعواهم أنه ليس من عند الله وأنه هو الذي افتراه»[(١)].

وجاء في (الكشاف): «أم منقطعة، والضمير في (افتراه) لما يوحى إليك. تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخاير في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد...

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ بعد قوله: (قل)؟

قلت: معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم»[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٨.
(٢) الكشاف ٢/٩٢.

ومن الملاحظ في رسم الآية أنه أخفى حرف الشرط في هذه الآية ، أدغم نون (إن) في (اللام) ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤] ، وأظهرها في آية أخرى وذلك في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وهذا الأمر يتعلق برسم المصحف ، ورسم المصحف لا يقاس عليه إلا أنه قد يمكن تعليله من الناحية البيانية أحيانًا.

فقد قال في (القصص): ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٨ ـ ٥٠].

ومن الظاهر أن التكذيب في آية هود إنما هو لمحمد خاصة ، فإنه قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وقال قبلها: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾.

وقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن.

وأما في القصص فإن التكذيب لمحمد وموسى ، فقد قال على لسانهم: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي محمد وموسى.

وقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ يعني التوراة والقرآن.

فلما كان الكلام في هود على واحد وحّد الرسم.

ولما كان الكلام في القصص على اثنين جعل الرسم اثنين وفصل

بينهما ، ذلك أن الرسولين إنما هما في زمانين منفصلين وأن الكتابين منفصلان والله أعلم .

﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي القرآن .

﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾أي واعلموا ذلك. والعلم بهذا إنما هو من مقتضيات ما مَرَّ من التحدي. فإنه بعد أن تبين عجز الجميع من دون الله عن الاستجابة لما طلب علم أن ما عداه ليس بإله ولا ندّ لله ، لأنه لو كان إلهًا لم يعجز عن الإتيان بمثله .

وقال: ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ فأمرهم بالعلم (فاعلموا) ليكون إيمانهم عن علم وبصيرة وليس تصديقًا بلا حجة وتسليمًا بلا دليل ، كما قال تعالى في عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقَدَّم قوله: ﴿ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لأن السياق إنما هو في الكلام على القرآن وليس على التوحيد. ثم إن القرآن يتضمن التوحيد ويأمر به ، فالإيمان به إيمان بالتوحيد قطعًا .

وبعد أن ذكر ما ذكر من مقتضيات الإيمان والعلم به حفزهم إلى الإسلام ، وهو الانقياد لأمر الله والاستجابة له ، ولم يكتف بمجرد الإيمان والعلم فقال: ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لأنه لو صدق المرء بقلبه وعلم الحق ولم يكن منقادًا لأمر الله مستجيبًا له لم ينفعه ذلك ولم ينجه من النار ، كما قال تعالى في عادٍ وثمود: ﴿ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فلم ينفعهم استبصارهم .

وكما قال في قوم الرسول: ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فلم ينفعهم عدم تكذيبهم ، بل سيكونون من الذين أضلهم الله على علم .

وقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي أفلا يدعوكم ذلك إلى الإسلام؟

أولا يدعوكم ذلك إلى الاستجابة بعد ما تبين صدق الرسول وما جاء به؟

وهو أبلغ مما لو قيل (أسلموا) فيأمر بالإسلام، ذلك أنه ينبغي أن يستجيبوا هم من أنفسهم من بعد توفر دواعي الإسلام وإن لم يطلب منهم ذلك أحد.

إن قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنما هو السبيل للدخول في الإسلام.

فالذي يريد الدخول في الإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين:

(لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وهذا الجزء من الآية تضمنهما، فقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ إقرار بنبوة محمد.

وقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار بكلمة التوحيد.

ولما كانت هاتان الشهادتان هما المدخل إلى دين الله وهو الإسلام قال بعد ذلك: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]

هاتان الآيتان مناسبتان للجو الذي وردتا فيه.

فقد ذكر في أول السورة سبيل المتاع الحسن في الدنيا وهو الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

والمتاع الحسن مما يريده الإنسان في هذه الدار مؤمنهم وكافرهم. فقال فيمن يريد الحياة الدنيا وزينتها أنه يوفي إليهم أعمالهم فيها. ولم يقل إنه يمتعهم متاعًا حسنًا.

في حين قال في الصنف المستغفر التائب إنه يمتعهم متاعًا حسنًا. وقال فيمن يريد الحياة الدنيا: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

وقال في الصنف التائب: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

ولا شك أن الصنف التائب متاعه أفضل ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها.

ثم ذكر بعد ذلك أثر الرحمة والنعماء في الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

وذكر الذين يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: ١٢] والكنز من وسائل متاع الحياة الدنيا وزينتها.

فناسب ما مَرَّ ذكره من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر شيئًا من أحوال الكفار المناقضين في القرآن ذكر شيئًا من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة. وظاهر من العموم في كل من يريد زينة الحياة الدنيا والجزاء مقرون بمشيئته تعالى، كما بين ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]»(١).

لقد قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأدخل (كان) على الفعل المضارع (يريد)، وهذا التعبير يفيد الاستمرار، أي يريدها على وجه

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٩.

